المحاضرة السادسة: المنهج الأركيولوجي

إن البحث المعمّق في التراث العلمي يتطلب الى جانب التوسع البحثي الأفقي فيه، عمقا عموديا في مقاربة النص المنقول، وسبر مكنوناته في الوصول الى فكره الظاهر، ثم التوغّل في أعماقه،بهدف كشف ودراسة الفكر المسكوت عنه في النص، وذلك لإحياء الفكرة التي كانت في عقل المؤلف، والتي قد يكون سكت عنها في ظاهر النص، لكن الباحث في التراث العلمي، يمكنه بمهمته البحثية،أن يتحصّل عليها في باطن النص، وليس الاكتفاء بإخراجه الى الحياة، على صورته الأولى. والمنهج البحث يالذي يضطلع بهذا الشكل من مقاربة النص، والقراءة الفكرية المعمّقة له، في الغور في عمقه العمودي وطبقاته المغمورة، هو المنهج الذي يطلق عليه بالحفريات المعرفية أو المنهج الأركيولوجي الحفري.

أولا: مفهوم المنهج الأركيولوجي

المنهج الأركيولوجي مشتق من الأركيولوجيا (l'archéologie)وهو علم الآثار و يعتبر من العلوم الحديثة التي اهتمت بإعادة البحث عن الحقائق التاريخية المرتبطة بالعصور الماضية، وقد نجحت الأركيولوجيا في تغيير نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى تاريخه الماضي، بحيث لم تعد معرفة التاريخ مرتبطة بروايات شفوية أو شهادات قابلة للزور؛ بل أصبحت دراسة الماضي تعتمد على معطيات تجريبية ومخلفات كل حقبة، فيتم تأسيس الحدث التاريخي على ما وجد من آثار تدل على كل حدث أو واقعة تاريخية.إن هذاالشكلمن(الأركيولوجيا)بدأتأثيرهواضحاً علىالعلومالإنسانيةمنذمنتصفالقرنالعشرين.

والمنهجالأركيولوجييقصدبهالبحثالمعمّقفيمتونالوقائع،أوالوثائقالتاريخية،وقراءتهامجدداً، قراءةمختلفةبشكلعمودي،سواءًباستخدامأدواتالبحثالمعاصرةوالمستحدثة،أوباستحضارالمرونةفيال ذهن،والقدرةالاستيعابيةالمنفتحةعلىآفاقالنصومكنوناته،دونالانغلاقعلىصورتهاالتقليدية،ومدركاته الموروثةالشائعة.

ثانيا: هدف المنهج الأركيولوجي

هدف المنهج الأركيولوجي الحفري هو تصفح الوقائع والأحداث، وإعادة قراءة النصوص بعمق وفق رؤية تفكيكية تحليلية لكشف ما وراء الظاهر من النص من حقائق قد تكون أغفلتها مجلدات التاريخ التقليدية.

فهو منهج معرفي يقدم آفاقاً دراسية منهجية، تسمح بكسر الجمود الفكري، بهدف التنقيب والتعرية المعرفية لإحياء النصوص وكشف المسكوت عنه في متون التراث العلمي.ورغم أنه من الناحية العلمية تظل نتائج هذا المنهج قابلة لتأويلات عديدة، فإنه نفض الغبار وأزال السِّتار عن عُيُوب المنهج التاريخي التقليدي، وقدم للإنسانية مدخلاً جديداً لفهم كثير من الحقائق المطمورة، واستطاع أن يصحح تصوراتنا حول حضارات وشعوب كانت في الغالب مرتبطة بالحكايات الأسطورية والخرافية.ينصرف المنهج الأركيولوجي الحفري المعرفي،إلى ما وراء الظاهر من النص، في قراءة وما يخفيه أو يسكت عنه، فهو يولد بذلك نصا ثانيا، وهو يستنهض النص المبتور، والذي تم إسكاته عنوة.

ثالثا: المنهج الأركيولوجي عند ميشال فوكو

ميشالفوكو(1926-1984) فيلسوففرنسييعتبرمنأهمفلاسفةالنصفالأخيرمنالقرنالعشرين، تأثربالبنيوييننوكانشديدالتأثربنيتشهوالجينيالوجياالذيسيخرجمنرحمهامنهجهاالأركيولوجي.

لقد وضع ميشال فوكوأسس المنهج الأركيولوجي أو الحفري المعرفي، ومارسه في أعماله الفكرية، من خلال الحفر في النصوص، لأصناف معرفية مسّت الخطاب، الذي يولد من خلاله الانسان، في علاقته مع الكلمات، عبر مختلف الأشكال السلطوية، في ممارسة الرقابة أو فرض القمع الفكري، حيث يسلك المنهج في هذه القراءة الحفر المعرفي ثم التفكيك والتأويل.

كانتكتبميشالفوكوتدرسوتكشفالمستوروالغيرمحبذوالطابوهاتالتيلايمكنالتحدثعنهامثلالحبوا لجنس
والجنونوالمرضوالخطابوالسلطةوالمثقفوالهويةوهوبذلكقداستعملالمنهجالأركيولوجيالذييعنيدراسةال حفرياتهذهالحفرياتالتيهيالمستوروالمتخفيعنالأعيان.

وتمارس الحفريات المعرفية تحليلا ونقدا لمضمون النص تاريخيا ولغويا وفلسفيا ونفسيا وأدبيا، في التعامل مع الأثر النصّي، الذي يتكامل مع الكتابة، على أنها فعل خلّاق، ينعكس في العديد من مجالات الحياة، والعلاقات البينية في المجتمع.

ويرى الحفر الكتابة على أنها ميزة راقية، تتسم بها المجتمعات المتحضرة، وفعل الحفر فيها تأكيد على ذلك، من أجل انهاض الفكرة من السبات المفروض عليها، وتحريرها

لبعث حركة "ديناميكية" جديدة، تكسر التجمد فيها، وتنطلق من الدلالات العميقة، وبذا يعبر عنه بأنه امتداد للأعمال البنيوية وانشطار عنها.

الجنون و السجون والجنس أشكال مختلفة من القهر الاجتماعي، تارة بالعزل وأخرى بالعقاب وأخرى بالفرض القمعي، وكأن السلطة والقوة تتخلل حياتنا بأشكال مختلفة وصور عديدة، وأهمها تلك السلطة المفروضة على عقولنا،والتي تتحكم في محتوى الوعى المعرفي لدينا، تلك السلطة التي يشرحها وينقب عنها ويحفر وراءها ميشال فوكو من خلال منهج مبتكر فريد من نوعه.

ترك فوكو مؤلفات عديدة من أهمها: تاريخ الجنون ، ميلاد العيادة، حفريات المعرفة، المراقبة والعقاب، تاريخ الحياة الجنسية.